الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف

هى مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية .

وعدة آياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد وذمّ أهل الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِي بِكِتَابٍ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) .

شرح المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوّفوا ، معرضون : أى مولّون لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب ، أثارة : أى بقية، ومثلها الأثرة (بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أثارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر: أى جمع ، كافرين : أى مكذبين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عندالله، لامن عند محمد كما تدّعون ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شيء ، إذ لاشيء فى الدنيا بدائم ، ولابد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لايستوى المحسن والمسيء ، ولكن الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالم من النظام والحكمة ، فلا هم بسماع الوحى متعظون ، ولا هم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون ؛ ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : أخبرونى ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ماتدّعون فهاتوا دليلا على هذا الشرك المدَّعَى بكتاب موحى به من قبل القرآن أو ببقية من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالكم أن

تعبدوها وهى لاتستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهى غافلة عنكم، وفى الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتجحد عبادتكم لها .

الإيضاح

(حٰمٓ) الكلام فى مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أنَّ نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ماخلقناها إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، و بتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لئلا يتساوى مَن أحسن فى الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دسّى نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا ولَجه .

ثم بين غفلة المشركين و إعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع مانصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا وأنَّى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لايعقلون .

و بعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبرونى عن حال آلهتكم بعد التأمل

فى خلق السموات والأرض وما بينهما والنظام القائم فيها المبنى على الحكمة ودقة الصنع والإبداع فى التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا فى خلق جزء من هذا العالم السفلى ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت فى هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد فى الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة فى خلق العالم العلوى شموسه وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفى استحقاق آلهتهم للعبودية على أتمّ وجه ، فقد نفى أن لها دخلا فى خلق شىء من أجزاء العالم السفلى استقلالا ، ونفى ثانيا أن لها دخلا على سبيل الشركة فى خلق شىء من أجزاء العالم العلوى ، ونَفْىُ ذلك يستلزم نفى استحقاق المعبودية أيضا .

وتخصيص الشركة فى النظم الجليل بقوله سبحانه « فِي السَّمَوَاتِ » مع أنه لاشركة فيها ولا فى الأرض أيضا — لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلَّم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة فى الحوادث السفلية ليست كذلك ، لتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكّتهم وعجّزهم عن الإتيان بسند عقلى ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند نقلى فقال :

(ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ما تقولونه حقا فائتونى أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ماتدّعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين فى خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذى سلكتموه .

والخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما

إرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟ و إن كان الثانى فأين هو ؟

و بعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه إبطاله بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما و يتخذهم آلهة ، وهم إذا دعوا لايسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لايجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ، إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لايسمعون ولا يتكلمون .

وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضّ ألمه لهؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح اختيارهم فى عبادتهم ما لايعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ، ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصايب .

و بعد أن أبان أنهم لاينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم فى الآخرة فقال :

(و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى و إذا جمع الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم، إذ يتبرءون منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ، تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام : « قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) .

شرح المفردات

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمدا ، فلا تملكون لى من الله شيئا : أى لاتغنون عنى من الله شيئا إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أى تخوضون فيه من تكذيب القرءان ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، والبدع والبديع من كل شىء : المبتدَع المحدَث دون سابقة له .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام فى النبوة و بين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئا من القرآن قالوا إنه سحر ، بل زادوا فى الشناعة وقالوا : إنه مفترى ، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه لو عاجله به ؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوّتى ، ويشهد لى بالصدق والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إنى لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم إلى التوحيد ، ونهيى لكم عن عبادة الأصنام ، وما أدرى مايفعل بى فى الدنيا ؟

أأموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا مايفعل بكم ، أترمَوْن بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يُفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإنى لا أعمل عملا ولا أقول قولا إلا بوحى من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه .

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ماهو أشنع منها فقال :

(أم يقولون افتراه) أى دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمدا افتراه على الله عمدا واختلقه عليه اختلاقا .

وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى قل لهم : لو كذبت على الله وزعمت أنه أرسلنى إليكم ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرّض نفسى لعقابه ، فالملوك لايتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمور عظيمة ، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَتِهِ » وقوله : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :

(هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .

ثم أكد صدق مايقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بينى و بينكم) فهو يشهد لى بالصدق فى البلاغ ، و يشهد عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم فى الطعن فى الآيات .

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعلهم يتوبون و يثوبون إلى الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء إن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وصح عزمكم على الرجوع عما أنتم فيه ، تاب عليكم وعفا عنكم وغفر لكم ورحمكم .

و بعد أن حكى عنهم طعنهم فى القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات على حسب مايريدون و يشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم: لست بأول رسول بلّغ عن ربه ، بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالفذّ الذى لم يعهد له نظير حتى تستنكرونى وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتى بالمعجزات متى شاء ، بل ذلك بإذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شىء ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم مايفعل بى فى الدنيا ، أأخرج من بلدى كما أُخْرِجَت أنبياء من قبلى ، أم أُقتَل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا مايفعل

بكم أيها المكذبون ، أترمون بحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربى .

وفى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريكِ أن الله أكرمه ؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى - وأنا رسول الله - مايُفعل بى ولا بكم ، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكى بعده أبداً » .

وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس «أنه لما مات قالت امرأته أوامرأة: هنيئا لك ابنَ مظعون الجنةُ ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضَب وقال : وما يدريك ؟ والله إنى لرسول الله ، وما أدرى مايفعل الله بى ، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه »

ومن هذا يعلم أن ماينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فرية على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا مايوحى إلىّ) أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع شيئا من عندى .

ثم زاد الأمر توكيدا فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير أنذركم عقاب الله ، وأخوّفكم عذابه ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتى ، ولست أقدر على شىء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

لايزال الكلام موصولا بسابقه ، فبعد أن نعى عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم فيه : إنه سحر مفترى ، وردّ الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكرون نبوته و يطلبون منه مالا قبل له به من المعجزات التى أمرها بيد الله لا بيده — أردف هذا بأمر رسوله أن يقول لهم : ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله الله علىّ لأبلغكموه فكفرتم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة على مثل ماقلتُ ، فآمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء ، ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل على صدق القرآن أن التوراة وهى الإمام المقتدى به ، بشرت بمقدم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها فى أنه رسول حقا من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعملوا صالحا لا يخافون مكروها ولا يحزنون لفوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة جزاء ماعملوا من عمل صالح وما أخبتوا إلى ربهم وانقادوا لأمره ونهيه.

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عندالله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبرونى إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لأنه سحر ولا مفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بنى إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم — أفلستم تكونون أضل الناس وأظلمهم ؟.

والخلاصة — أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بنى إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ماقلت فآمن به مع استكباركم — أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم ؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام — فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : «ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» . ونزل فىّ : « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان هو ظلمهم لأنفسهم وكفرهم بآيات ربهم فقال :

(إن الله لايهدى القوم الظالمين) أى إن الله لايوفق لإصابة الحق وهدى

الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعى قال : « انطلق النبى صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أروني اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال: أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفّى، آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، فقال فإنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرّا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إلى قوله — إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه السيوطى .

ثم حكى نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فى القرآن العظيم والمؤمنين به فقال:

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه) أى وقال كفار مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كعمار وصُهيب وابن مسعود ومن لفّ لفّهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء ، فإن معالى الأمور لا تنالها أيدى الأراذل ، وهؤلاء سُقّاط الناس ورعاة الإبل والشاء ، وقد قالوا ذلك زعما منهم أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ،

وقد غاب عنهم أنها منوطة بكمالات نفسية وملكات روحية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ، ومن حُرِمها فما له فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلمت جُهينة ومُزَينة وأسلم وغِفار قالت بنو عامر وغطفان وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ماسبقتنا إليه رعاء البُهْم والشاء .

فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) أى وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون الفَيْنَة بعد الفينة والحين بعد الحين : هذا كذب مأثور عن الأقدمين ، انتقاصا له ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً أَصِيلاً » .

ثم رد عليهم طعنهم فى القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيًّا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين) أى ومما يدل على صحة القرآن أنكم لاتنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبنى إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمَقْدَم محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفكا قديما وهو مصدق لكتاب موسى الذى تعترفون بصدقه ، وهو بلسان عربى والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى دليل على اتحادهما صدقا — فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم .

و بعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق المحقين وذكر جزاءهم فقال :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ولم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولاهم يحزنون على ماخلفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ماقدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

شرح المفردات

الإيصاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ،

والكره (بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : فطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، أوزعنى : أى رغبنى ووفقنى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مولعا به راغبا فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلكهم كما تقول أكرمنى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده سبحانه و إخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا بالوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً » وقوله : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أمّ الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنوّ عليهما ، والبر بهما فى حياتهما و بعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر ؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلق وألم الوضع ، فكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها للكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا تكابد الأمّ فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموّه وحسن صحته .

وفى الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها علىّ كرم الله وجهه ووافقه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن مَعْمَر ابن عبد الله الجهنى قال : تزوج منا رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله فىّ ماشاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال ماتصنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : «حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» فلم تجده أبقى إلا ستة أشهر ، فقال عثمان: والله مافطنت لهذا ، علىّ بالمرأة ، فوجدها قد فُرِغ منها ، قال مَعْمَر فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابنى والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتهل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين .

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكماله ، ومن ثم روى عن ابن عباس : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ولهذا قيل :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون مايهوى حياء ولا سِتْر
فدعه فلا تَنْفَس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابنى الخالة «عيسى ويحيى».

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) أى رب وفقنى لشكر نعمك التى غمرتنى بها فى دينى ودنياى ، بما أتمتع به من سعة فى العيش وصحة فى الجسم وأمن ودعة للإخلاص لك واتباع أوامرك وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والدىّ من تحننهما علىّ حين ربيانى صغيرا .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

(وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى متمكنا من نفوسهم راسخا فى قلوبهم .

قال ابن عباس : أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيْرة ، ولم يُرِد شيئا من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : أصلح لى فى ذريتى ، فأجابه الله تعالى ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا ، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ

صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

(إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) أى إنى تبت إليك من ذنوبى التى فرطت منى فى أيامى الخوالى ، وإنى من الخاضعين لك بالطاعة المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

روى أبو داود فى سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعلّمهم أن يقولوا فى التشهد : اللهم ألّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجّنا من الظلمات إلى النور ، وجنّبنا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا ، وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُثْنِين بها عليك ، وأتمها علينا .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ماعملوا فى الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التى فرطت منهم فى الدنيا لمامًا ولم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية أو القوة الغضبية فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون فى سلك أصحاب الجنة ، داخلون فى عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذى لاشك فيه وأنه موفٍّ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موصّى بوالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى ؟ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَاهَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

أفٍّ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر للحساب ، خلت القرون من قبلى : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستغيثان الله : أى يقولان الغياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستغيثان بالله من كفره إنكارا له واستعظاما له حتى لجأ إلى الله فى دفعه كما يقال العياذ بالله من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيِّه وترك ماهو فيه وأخذ بما ينجيه ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من

غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودركة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودركات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال الداعين للوالدَين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هـذا بذكر حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا بأن لـكل من البررة والـكفرة منازل عند ربهم كفاء ماقدموا من عمل وسيجزون عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للـكفار حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبـة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أفّ لـكما ، أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلْقَه من

قبورهم ومجازاته إياهم بأعمالهم : أفّ لكما : إنى لضجر منكما ، أتقولان إنى أبعث من قبرى حيا بعد موتى وفنائى وما لحقنى من بِلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عاجب فهاهى ذى قرون مضت ، وأمم قد خلت من قبلى كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبُعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحد يخبّر أنه فى جنة لمّا مضى أو نار

وزعم مروان بن الحكم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها . أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) فى يزيد رأيا حسنا أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: سنةَ هِرَقْل وقيصر [1] إن أبا بكر رضى الله عنه ماجعلها فى أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألستَ « الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا» فقال عبد الرحمن : ألستُ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ والله مافيه نزلت ، نزلت فى فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد فى شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فيأبى وينكر .

(وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ويقولان له حثا وتحريضا : هلا كالك صدّق بوعد الله وأنك مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة — إنهما يستعظمان قوله ويلجآن إلى الله فى دفعه ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحثاه على ترك ماهو فيه ويشعراه بأن مايرتكبه جدير بأن يهلك فاعله .

ثم ذكر ردّه عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجيب من حالهما .

(فيقول : ماهذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيبا والديه رادّا عليهما نصحهما مكذبا بوعد الله : ماهذا الذى تقولان لى وتدعوانى إليه ، إلا ماسطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتماه أنتما وصدقتما به ، ولا ظلّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :

(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى هؤلاء الذين هـذه فهم أوصاهم الذين وجب عليهم عذاب الله وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعَتَوْا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس ، قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لايموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفيها ردّ أيضا على من قال : إنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجُبّ عنه ماقبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو من علم الله تعالى أنه لايُسْلِم أبدا .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهين فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) لأنهم ضيعوا فِطرهم التى فطرهم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فغبنوا بيعهم الهدى بالضلال ، والنعيم بالعذاب .

ثم ذكر أن لكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون) أى ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة على حسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، وليوفيهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسىء منهم بإساءته ، وهم لايظلمون شيئا حينئذ ، فلا يعاقب المسىء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه .

وبعد أن بيّن سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأهوال التى يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون فى النار ، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ماقدر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه فى الدنيا ونلتموه ولم يبق لكم منه شىء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزى جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .

وفى هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه رأى فى يد جابر بن عبد الله رضى الله عنه درهما فقال ماهذا الدرهم ؟ قال أريد أن أشترى به لأهلى لحما قَرموا إليه ، فقال : أكلما اشتهيتم شيئا اشتريتموه ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء[1] وصنابا وصلائق

(١) الصلاء : الشواء بالمد والكسر ؛ والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الحملان المشوية

ولكنى أستبقى حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال: « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا بمِسْح (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قُلْبَيْن (مثنى قلب بضم فسكون السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القُلبين من الصبيّين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر لفاطمة قلادة من عَصْب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتى : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا » .

وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، ولله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ماوجد ، طيبا كان أو قفارا (الطعام بلا أُدْم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله ديدناً له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

أخا عاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به وادٍ بين عمّان ومَهْرَة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سيارة فى الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرَم ، والنذر : واحدهم نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آلهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاجلة العذاب على الشرك ، إنما العلم عند الله : أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى:

يا من رأى عارضا قد بِتُّ أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشُّعَل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تُدَمر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيّنا ونوّعنا ، الآيات : الحجج والعبر ، فلولا : أى فهلا ، نصرهم : أى منعهم ، قربانا : أى متقربا بها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أثر إفكهم وصرفهم عن الحق، وما كانوا يفترون : أى وأثر افترائهم وكذبهم.

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تُجْدِهم فتيلا ولا قِطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أردف هذا بذكر قصص عاد وضرب لهم المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئا .

الإيضاح

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجئتهم به من الحق ـ هودا أخا عاد فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحا : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول «يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ. يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومه له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ماتدعونا إليه و إلى اتباعك فيما تقول ؟ هلمّ فهاتِ ماتعدنا به من العذاب على عبادة مانعبد من الآلهة إن كنت صادقا فى قولك وعِدَتِك .

والخلاصة — أتزيلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك إن كنت صادقا فى وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

فردّ هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لاعندى فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربى .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرّين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ماليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجىء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحابا يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغيث ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا .

ولما سمع هود مقالهم وشامه مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض و بين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شىء بأمر ربها) أى تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » أى كالشىء البالى الخلق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فصاروا بعد الهلاك لايرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال وأذهبت الأنفس وجعلتها أثرا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ماعرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر.

أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير مافيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخيلت السماء تغيَّر لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سُرّى عنه ، فسألته ؛ فقال عليه السلام لا أدرى لعلّه كما قال قوم عاد (هذاعارض ممطرها)» .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت: « مارأيت رسول الله مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته[1] و إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عُرف ذلك فى وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية ، قال : ياعائشة وما يؤمّننى أن يكون فيه عذاب ، عذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذاعارض ممطرنا» .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور[2] » .

---

(١) واحدها لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٢) الصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب.

وقد قال شاعرهم يحكى هذا القصص فيما رواه ابن الكلبى :

فدعا هود عليهم دعوةً أضحَوْا هُمُودا
عصفت ريح عليهم تركت عاداً خمودا
سُخّرت سبع ليال لم تدَع فى الأرض عودا

(كذلك نجزى القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا ، فأهلكناهم بعذابنا ، كذلك نجزى كل مجرم كافر بالله متماد فى غيّه .

ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه) أى ولقد مكنا عادا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه من الأموال الكثيرة وبسطة الأجسام وقوة الأبدان — وهم على ذلك ما نجَوْا من عقاب الله ، فتدبروا أمركم وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهربا .

ونحو الآية قوله : « كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ » .

(وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصارا ليروا ما نصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوبا تفقه حكمة الله فى خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم فى آخرتهم وقربهم من جوار ربهم ، بل صرفوها فى طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة فى عدم إغناء ذلك عنهم فقال :

(إذ كانوا يجحدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله وينكرون معجزاتهم .

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ماسخروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفى هـذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه ، فإن عادا لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكهم على مالهم من المكنة العظيمة ، ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال :

(ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) أى ولقد أهلكنا يا أهل مكة ماحول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت ، وثمود وكانت منازلهم بينهم و بين الشام ، وسبإ باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرناهم بالمثلات ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

(وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون) أى و بيّنا لهم دلائل قدرتنا ، و بديع حججنا ليرجعوا عن غيّهم الذى استمسكوا به لمحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحلّ بهم سوء العذاب ولم يجدوا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهـذا ماعناه سبحانه بقوله :

(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم) أى فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ، حين جاءهم بأسنا فأنقذوهم من عذابنا إن كانوا يشفعون عنده .

وفى هذا تقريع لأهل مكة وتأنيب لهم على أنه لو كانت آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تغنى عنهم شيئا ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عمن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم إياها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، لكنها أضرّتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فما أحراهم أن يتنبهوا لما هم فيه من خطل الرأى وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفكهم الذى هو اتخاذهم إياهم آلهة ، وثمرة افترائهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) .

شرح المفردات

صرفنا : أى وجهنا ، والنفر : مابين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سموا بذلك : لأنهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته ، أنصتوا : أى اسكتوا ، قضى : أى فرغ

من تلاوته ، ولّوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوّفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جنّ نَصِيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نِينَوَى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن و يدعوهم إلى الله تعالى و يقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمروا على الضلال . أجاره الله من العذاب : أنقذه منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز فى الأرض : أى لاينجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرّض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه السلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالمَ الملائكة وعالمَ الجن لايقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهو بمعزل عن ذلك ، و إنما دليلهما السمع و إخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلينا أن نؤمن بما جاء به فحسْبُ ولا نزيد على ذلك شيئا ، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالمَ الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا ، فعلينا أن نؤمن بأن اتصالا قد تمّ بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالمَ الملائكة ، و به تلقى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالمَ الجن ، فعلمهم و بشرهم وأنذرهم ، لكنا لاندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقوا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءا من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر

فى ذلك ، ففى هذه الدراسة معرفة شىء من أحوالنا فى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة. وسيأتى تفصيل لهذا القصص فى سورة الجن .

الإيضاح

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذكر أيها الرسول لقومك موبّخا لهم على كفرهم بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرعوون عن غيّهم وقبح ماهم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ، ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عِبَر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرٌ لما فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب ، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ، قال ماصحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل . استُطير . مافعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،

فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قِبَل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية . ثم فصل ما قالوه لهم فى إنذارهم .

(قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم يا قومنا من الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ماقبله من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، و إلى مافيه لله رضا ، و إلى الطريق الذى لاعوج فيه .

وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم) أى يا قومنا أجيبوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويسترها لكم ولا يفضحكم بها فى الآخرة بعقوبته إياكم عليها ، وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أنتم تبتم من ذنوبكم وأنبتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة .

وفى الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى .

ثم حذروا قومهم وتوعدوهم وأوجبوا إجابتهم داعىَ الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) أى ومن لايجب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى مادعا إليه من التوحيد

والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بيّن أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية فى الضلال، والبعد عن الصراط السوىّ فقال: (أولئك فى ضلال بعيد) أى وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون فى ضلال بيّن وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضح وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هوله أهل .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥).

شرح المفردات

لم يعى : أى لم يعجز، قال الكسائى : يقال أعييت من التعب ، وعييت من انقطاع الحيلة والعجز ، قال عَبيد بن الأبرص :

عَيُوا بأمرهمُ كما عيَّتْ ببيضتها الحمامهْ

أولو العزم : أى ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل المجّدُ وموسى وعيسى والحبيبُ محمدٌ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى أول السورة مايدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم ثنى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، و بعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لامحالة و إن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن فى هذه العظات كفاية أيّما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقد لأمره ونهيه :

الإيضاح

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى؟) أى أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، و بعثه إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شىء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم ؟

ونحو الآية قوله عز وجل : « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، طائعة خائفة وجلة — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ .

ثم أجاب عن ذلك مقرِّراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال:

(بلى إنه على كل شيء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لايختلف فيه أحد ، ولا يعارض فيه ذو لبّ .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر مايحدث حينئذ من الأهوال فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث و بثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هـذا العذاب الذى تُعذَّبونه اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بالحق الذى لاشك فيه ؟ قالوا من فَوْرهم : بلى وربنا إنه لحق .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال آمرا لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا و إبائكم الاعترافَ به إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لنبيّه ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال :

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته .

والخلاصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ثم ظل صائما قال يا عائشة : « إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد ،

يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم عن الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : « اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإنى والله لأصبرنّ كما صبروا جَهدى ولا قوة إلا بالله » . أخرجه ابن أبى حاتم والدّيلمى .

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاه عن العجلة وهى أخسّ الرذائل فقال :

(ولا تستعجل لهم) أى لاتعجل بمسألة ربك العذابَ لهم ، فإنه نازل بهم لامحالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً » وقوله : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » .

ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم ـ لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ـ لأن شدة مايزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » وقوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى وما يهلك بالعذاب إذا نزل إلا الخارجون عن طاعة الله المخالفون لأمره ونهيه ؛ إذ لايعذب إلا من يستحق العذاب .

قال قتادة : لايهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء ومن ثم قال الزجاج : تأويله لايهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع فى سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبرانى فى الدعاء عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لاتدع لى ذنباً إلا غفرته ولا همًّا إلا فرّجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .

(٢) المعارضات التى ابتدعها المشركون للنبوة والإجابة عنها و بيان فسادها .

(٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه و بيان أن جزاءهم الجنة .

(٤) ذكر وصايا للمؤمنين من إكرام الوالدين وعمل مايرضى الله .

(٥) بيان حال من انهمكوا فى الدنيا ولذاتها .

(٦) قصص عاد وفيه بيان أن صرف النعم فى غير وجهها يورث الهلاك .

(٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ماسمعوه .

(٨) عظة للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .

(٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والكفاية فى الإنذار .

(١٠) من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهيه .